https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

عندما يكون الحجاج مجرد هدف إقناعي

نموذج الخطاب السياسي(*)

باتريك شارودو

ترجمة: عبد القادر ملوك

جامعة ابن زهر، أكادير. المغرب

Abdelkadermellouk2201@gmail.com

الملخص:

يقارب هذا المقال، الذي نعرض ترجمته هنا، زاوية من زوايا التفكير في موضوع الحِجاج، يدافع من خلالها اللساني الفرنسي باتريك شارودو عن فكرة مؤداها أن الحجاج لا ينبغي أن يظل مبحثا تنظيريا صرفا، بل علينا أن نقاربه من منطلق السياق الخاص للوضعية التواصلية، اقتناعا منه بأن القيمة الحجاجية لفعل خطابي معين لا يمكن الحكم عليها ولا تقويمها التقويم الدقيق خارج شروط إنتاجها ومقتضيات تبلورها. وتبعا لذلك، فقد عمد الكاتب، خلال مسار عرضه لأطروحته، إلى توظيف أمثلة متنوعة استقاها تحديدا من الحقل السياسي، بالنظر إلى أن هذا الصنف من التواصل يجعل غايته في تحقيق الإجماع، ولذلك فإن الحجاج الذي يستند إليه في تحقيق هذه الغاية، يرتكز في جزء كبير منه على القيم المشتركة وعلى الرأي العام. وبتأرجحه بين "نظام العقل" و"نظام العاطفة"، فإن الخطاب السياسي يشابه في مساره الإقناعي الخطاب الإشهاري، ووجه المشابهة يكمن في استنادهما معا إلى ضرب من الإخراج الإقناعي يستحوذ الإيتوس والباتوس على مجامعه، بينما لا يحضر اللوغوس إلا بصورة محتشمة لا تكاد ترى.

الكلمات المفتاحية:

شارودو، الحجاج، الإقناع، الخطاب السياسي، الرهانات التواصلية.

(*) هذا المقال هو ترجمة لفصل من تأليف باتريك شارودو *Patrick Charaudeau* بعنوان:

«Quand L'argumentation n'est que visée Persuasif. L'exemple du discours politique»

ورد ضمن مؤلف جماعي بعنوان:

«Argumentation et communication dans les médias, Edition Nota bene, 2005».

أشرف عليه كل من مارسيل بيرجي *Marcel Burger* وغيلين مارتيل *Guylaine Martel*.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

Quand L'argumentation n'est que Visée Persuasif. L'exemple du Discours Politique

Patrick Charaudeau

Tr. Dr, Abdelkader Mellouk

Ibn Zouhr University, Agadir, Morocco

Abdelkadermellouk2201@gmail.com

Abstract:

The article, which we have translated here, consists of a reflection on the subject of the argumentation of the French linguist Patrick Charaudeau who supports the idea that the argumentation must be addressed according to the particular context of the communication situation, believing that the argumentative value of an act of discourse cannot be judged or evaluated outside its conditions of production. Illustrating his demonstration from various examples borrowed mainly from the political scene, the author recalls that political communication seeks above all consensus and that, in doing so, the argument on which it is based is largely built on common values, on public opinion. Oscillating between the order of reason and the order of passion, the political discourse, just like advertising discourse, is a persuasive staging in which ethos and pathos carve out the lion's share, leaving to the logos the congrue part.

Keywords:

Charaudeau, argumentation, conviction, political discourse, communication issues.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

هل

هل مِن جديد يمكن أن يقال عن الحِجاج بعد الذي حظي به من توسع وتطور داخل حقلي المنطق والبلاغة؟ لقد ولد مبحث الحجاج داخل هذين الحقلين، فحُجب لردح من الزمن من قبل الأول، ثم أعيد بعثه من جديد عن طريق ما سمي بالبلاغة الجديدة، لكي يعاد تعريفه، في مرحلة أخيرة، ضمن إطار الفلسفة التحليلية وعلوم اللغة. واليوم يبدو أن الحجاج قد وصل إلى نهاية السباق: فقد صرنا نتوفر على أصناف حجاجية عديدة، يلزمنا فقط العمل على تطبيقها.

بيد أن هناك ثلاثة أسئلة مترابطة بعضها ببعض لا تزال موضوع سجال: الأول يتعلق بالعلاقة بين العقل والانفعال والتي تطرح سؤالا ذا صلة بالزوج صواب/خطأ؛ والثاني وضع الحجاج إزاء أصناف أخرى من قبيل الإقناع، التفسير، والبرهنة، والذي يطرح سؤال التراتبية المفترض قيامها بين هذه الأصناف؛ أما السؤال الثالث فينصب على الصلة القائمة بين الحجاج والتواصل والتي تفرض سؤالا يتعلق بمدى وجود خطاب حجاجي قائم في ذاته. وتبعا لذلك، فإن غاية ما أرمي إليه من هذا المقال، أن أوضح أن القيمة الحجاجية لفعل خطابي ما، لا يمكن الحكم عليها خارج شروط إنتاجه، أي خارج الوضعية التواصلية التي تحتضن مختلف الشركاء في التبادل اللغوي.

ان السؤال المتعلق بمعرفة ما إذا كان الحجاج قضية عقل أم انفعال هو سؤال ضارب في القدم. فمنذ أرسطو[1]، كانت هناك فكرة فرضت نفسها على القدماء مفادها أننا لا ينبغي فقط أن نكتفي بالتفكير بطريقة سليمة،

[1]. Aristote, Rhétorique

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

بل ينبغي أن نسعى إلى التأثير في القضاة والحكام وفي السامعة إجمالا. ومعنى التأثير هنا وضعهم في "حالة ذهنية" تسمح بتوجيه أحكامهم بسهولة نحو هذا الاتجاه أو ذاك. ومنذ ذلكم الحين، ومرورا بشيشرون[1]، وباسكال[2]، وروسو[3]، وصولا إلى البلاغة الجديدة[4]، صرنا نقبل بعدم إمكان استبعاد الأحاسيس عن كل عملية لغوية تصبو إلى التأثير في المخاطَب، ولكن مع ضرورة التمييز، في الوقت نفسه، بين "الاقتناع" وبين "الإقناع". فالأول ينتج عن التفكير الخالص، ويستند إلى جملة مهارات ذهنية ويستهدف تأسيس الحقيقة. أما الثاني فيقوم على الأحاسيس (واليوم صرنا نتحدث عن العاطفة)، ويستند إلى أنشطة انفعالية تستهدف استمالة المتلقي. إنها المقابلة ذاتها بين "اللوغوس" من جهة و"الباتوس" من الجهة الأخرى، وإليهما ينبغي أن نضيف "الإيتوس" الذي يتعلق بصورة المتحدث [أو بالأحرى بالصورة المعيارية المنسوجة حول ذات المتحدث] والتي تمارس تأثيرا على المتلقي انطلاقا من الصورة التي يسقطها هذا الأخير على المتحدث أو الخطيب.

بيد أن هذا لم يحل، في وقتنا الراهن، دون استمرار حضور وجهتي نظر متناقضتين حول مسألة معرفة ما إذا كان هذان الصنفان المتمثلان في الاقتناع والإقناع موجودين فعلا ويشتغلان في استقلال عن بعضها البعض أم أنهما مرتبطان فيما بينهما برباط ضيق جدا يجعل من المتعذر الفصل بينهما. يدافع البعض في الواقع، بناء على دراستهم للحجاج كمسار تفاعلي محكوم بمنظور "تداولي - جدلي"[5]، عن الفكرة التي مقتضاها أن هناك منطق حجاجي، وأن الحجاج، بشكل أو بآخر هو نشاط عقلي في المقام الأول، وبالتالي فكل حديث عن توظيف الحجاج في التعبير عن الانفعالات، في ظل هذا المعطى، لا يعدو أن يكون مصدر انزياح عن هذا النشاط. وقد أصبح بالإمكان عرض بعض أشكال هذا

1. Ciceron, De l'Orateur.
2. Pascal, De l'art de persuader
3. Rousseau, L'Emil.
4. C.Perelman et O.Olbrechts Tyteca (1970).
5. Van Eemeren (1996) et Copi (1986).

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

الانزياح في صورة لائحة بالمغالطات«*paralogismes*» (بالإنجليزية[1]«*fallacies*») التي يمكن عدها مخاطر تعكر صفو ونقاء النشاط الحجاجي.

وإذا كان هذا رأي هؤلاء، فإن بعض الباحثين الآخرين[2] يرون في المقابل أنه لا ينبغي تغييب العواطف من دائرة الحجاج، بل يجب العمل على تصنيفها وإدماجها داخل المسار الحجاجي، بالنظر إلى كونها جزءا من عملية تشكُّل الأحكام. ففي سيرورة ابناء خطاب ما تتدخل، بدرجة أهمية متساوية، مقولات العقل ومقولات العاطفة[3].

إن ملاحظة عدد من الخطابات – وبخاصة تلك التي تنتمي إلى مجال التواصل السياسي، أو الإشهاري، أو الإعلامي أو الديداكتيكي – في سياق تداولها الاجتماعي، تطلعنا بصورة جلية على أنها خطابات لا تستند فقط على الحجاج المنطقي، وإنما أيضا وبنسبة كبيرة على نوع من الإخراج الإقناعي الذي يحوز فيه الإيتوس والباتوس حصة الأسد، تاركين للوغوس حيزا ضئيلا جدا. فالواقع، أن الذوات المتكلمة الرامية إلى حث الآخر على سلوك معين، سواء كان فعلا، أو قولا، أو تفكيرا، أو ثنيه عن هذا السلوك، تنهجس بحجم التأثير الذي يحدثه خطابها أكثر منه بدقة استدلالها. ويمكننا أن نضيف أن هذا الأمر يحدث في كل مرة لا تكون فيها الذات في وضعية سلطة مطلقة أمام مخاطَبها، بحيث لا يكون بإمكانها إلزامه بتنفيذ أمر أو إجباره على التفكير في اتجاه معين[4]؛ فتعمد بكل بساطة إلى محاولة إقناعه بأن يتصرف أو يفكر على نحو معين.

[1]. F. Van Eemeren et R.Grootendorst (1996).

[2]. M. Meyer, C. Plantin, H. Parret, R. Boudon et P. Charaudeau.

[3]. يرى جيل غوتييه (Gauthier)، في مقال له ضمن هذا الكتاب، أن هذه المقولات ليس لها نفس القيمة الحجاجية.

[4]. "خلق، أو تغيير أو تأكيد آراء معينة" على حد قول ج.م. دومييناك J.M.Domenach (1950).

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

ومنه نتساءل: أي موقف ينبغي أن نتبناه إزاء صلة الحجاج بالاقناع، وأيّ مكانة ينبغي أن نخصصها لبقية الأصناف الأخرى المتمثلة في البرهنة والتفسير، والتي تارة ينظر إليها كأنماط للاستدلال[1]، وتارة أخرى كأجناس مستقلة[2].

الحجاج والإقناع:

موضعان لتنظيم الخطاب

لقد عرّفت الحجاج، منذ زمن بعيد، بأنه "طريقة لتنظيم الخطاب"[3]، بمعنى أنه موقف ذهني قوامه وصف "لماذا" و"كيف" تحدث ظواهر العالم، مع ما يرافقها من إكراهات خطابية ترتبط بالكيفية التي تنتظم بها العمليات اللغوية. ونحسب أن هنا مكمن تعارض الحجاج مع النمطين الآخرين لتنظيم الخطاب المتمثلين في الوصف والسرد، واللذين يتناسبان، كل من جهته، مع موقف ذهني مخصوص، ويعتمد على جهازه الخاص في تنسيق العمليات اللغوية. فالوصف يقوم على توصيف خصائص موجودات العالم (طبيعتها، وخصائصها) بالاعتماد على مختلف طرق "الوصف النوعي"[4]؛ بمعنى أن هذه الفاعلية اللغوية تسمح بتحديد وتمييز موجودات العالم، والتي من دونها كان سيتعذر فهم العلل التي تقف وراء أفعالها والكيفية التي تؤديها بها (نحن نفعل أو نسلك لأننا نوجد، والعكس صحيح). أما السرد فهو من جانبه يقوم على وصف "الأعمال" التي تنجزها هذه الموضوعات (الأفعال التي تقوم بها أو تخضع لها

[1]. راجع التأريخ الذي أنجزه حولها ك.بلونتان C.Plantin ضمن:
Essais sur l’argumentation, 1990.

[2]. راجع المدخل "جنس"، ضمن معجم تحليل الخطاب، 2002.

[3]. انظر الفصل الموسوم بـ "نمط التنظيم الحجاجي"، ضمن كتابنا: نحوُ المعنى والتعبير"، 1992.

[4]. انظر شارودو (1992، الجزء 3، الفصل 3).

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

والأحداث التي تؤطرها)، وذلك بمساعدة مختلف الطرق الخاصة بـ "العملية السردية"[1]؛ بمعنى أن هذه الفاعلية اللغوية تسمح بتسليط الضوء على كيفية تشكل الظواهر، وعلى أسبابها كما على نتائجها.

الميكانيكا الحجاجية:

من أجل التمكن من تحديد أسباب وكيفيات حدوث ظواهر العالم، تجد الذات المحاججة نفسها ملزمة باتباع ترتيب معين للعمليات، يقتضي منها ضرورة الانخراط في ممارسة معرفية رباعية الأبعاد تتحدد في: الأشكلة، والتموضع، والتفسير والإثبات.

تفيد الأشكلة إطلاع المخاطَب (أو المتلقي) على موضوع الخطاب، بمعنى، جعله على دراية بالمجال الموضوعاتي الذي نقترح عليه أخذه بالاعتبار، وبالسؤال الذي يتصدى له[2]. وهذا السؤال لا يفرض نفسه إلا عند تضارب موقفين مختلفين (أو متناقضان) على الأقل، حول نفس الموضوع. فعلى سبيل المثال، ثمة طرق عديدة لمناقشة موضوع "التدخل الإنساني"، غير أن التساؤل حول ما إذا كان من الواجب التدخل أم لا في بلد أجنبي في حالة ثبوت ارتكابه لانتهاكات في حق ساكنته، يضعنا أمام موقفين اثنين ("ينبغي التدخل"/ "لا ينبغي التدخل") وبالتالي فهو يقترح على المخاطب أشكَلَة لهذا الموضوع. ويمكننا أن نقول، بتعبير آخر، أن عملية الأشكلة تفيد، في آن واحد، أن يقترح المخاطِب على المخاطب مجالا موضوعاتيا ("موضوع") ونطاق المساءلة الذي يود المحاججة من داخله ("قضية")[3]. وهذا ما يسميه ك.بلونتان (*C.Plantin*) بـ "شرط الخصومة"[4].

---

[1]. انظر شارودو (1992، الجزء 3، الفصل 4).

[2]. ينظر:

«L'argumentation n'est peut-être pas ce que l'on croit», 1998.

[3]. بخصوص مفهومي" موضوع "و" قضية"، ينظر:

Charaudeau (1992, 3e partie, chap.5, La mise en argumentation).

[4]. نوافق ك.بلونتان في رأيه الذي يقضي بأن "المساءلة شرط أساسي في صياغة عملية حجاجية ما"، ينظر مقال "سؤال" Question، ضمن:

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

إلا أن هذا يظل مع ذلك غير كاف، لأنه يتوجب على الطرف الذي يرغب في المحاججة أن يصرح بالجانب الذي يريد الدفاع عنه من القضية. بمعنى أن عليه أن يحدد موضعه إزاء الأشكلة المقترحة بأن يصرح بالموقف الذي يعتزم مناصرته، مع أي موقف هو وضد أي موقف، وهذا من شأنه أن يدفعه دفعا نحو توضيح سلسلة الأسباب التي قادته إلى الانتساب إلى موقف بعينه. وهنا يطفو على السطح إكراه آخر، يتمثل في صحة فعله التوضيحي، فيجبره على استدعاء الحجج التي تمكنه من إثبات الأسس التي بنى عليها وجهة نظره، بحيث لا يدع أمام المتلقي أدنى شبهة اعتراض. إن الحجاج، بهذا المعنى، هو ممارسة معرفية عامة تستهدف المتلقي، تستند على تنظيم خطابي معين يسعى إلى أن يفرض عليه إطارا تساؤليا واضحا، وموقفا محددا، وحججا داعمة، بحيث لا يجد المتلقي أية حجة مضادة يرفعها في وجه الذات المحاججة، فينتهي به الأمر إلى مشاركتها رأيها. وهذا إنما يزيد في توسيع دائرة الاختلاف أكثر بين الحجاج وبين الوصف والسرد: فالحجاج يسعى إلى أن يفرض على الآخر رؤية المحاجج في ما يتعلق بأسباب وكيفيات حدوث الأشياء في العالم، في حين لا يفعل الآخران المتبقيان أكثر من اقتراح رؤية حول خصائص الموجودات وأفعالها[1]. إن الأمر يتعلق هنا بميكانيكا مفهومية تمثل، على غرار لغة دو سوسور، نظاما ممكنا موضوعا رهن إشارة الذات المتكلمة.

الرهانات التواصلية:

وكيما يكون لهذا الإنفاذ معنى، ينبغي أن يدخل ضمن رهان تواصلي معين. ولذلك سنعرض ههنا ثلاثة أنواع من الرهانات: رهان التفسير، رهان البرهنة ثم رهان الاقناع[2].

P. Charaudeau et D. Maingueneau, Dictionnaire d'analyse du discours, 2002.

[1]. يراجع مقالنا:

«L'argumentation n'est peut-être pas ce que l'on croit», op.cit.

[2]. يمكن للقارئ أن يطّلع على مقال بروتون (Breton) الموجود ضمن هذا الكتاب، ليتعرف أكثر على الأجناس الإخبارية (ص.117-118)، والحجاجية (ص.119-120) والتعبيرية (ص.120-122).

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

أما رهان التفسير فهو يضع الذات في موقف المطالَب بتوضيح دوافع وأنماط حدوث ظاهرة مخصوصة، نعرف مسبقا علتها وكيفية اشتغالها. بصيغة أخرى، في التفسير، تكون الحقيقة قد تحددت سلفا خارج الذات. والذات التي تفسر تفترض أن الآخر لا يعلم شيئا عن هذه الحقيقة، فتعمل على تمكينه من معرفة هذه الحقيقة. هذا الرهان نعثر عليه داخل الوضعيات الخاصة بالتكوين والتعليم. أما رهان البرهنة، فهو على العكس تماما، يضع الذات في موقف المطالَب بإنشاء حقيقة وتعضيدها بأقوى حجة ممكنة. فمن يبرهن يلزمه أن يفترض بأن الحقيقة لم تتشكل بعد وبالتالي وجب إنشاؤها؛ وتبعا لذلك فهو سيلفي نفسه أمام احتمالين؛ فإما أن الحقيقة الموجودة تبيَّن خطؤها ومن تم وجب تعويضها بأخرى صحيحة؛ وإما أنها موجودة لكن حُجِّيتها ظلت ضعيفة، فصارت تستوجب تقويتها وتعضيدها بحجج وأدلة جديدة. ومثل هذا الرهان، نعثر عليه في الحالات المتعلقة بالندوات والمؤتمرات، أو بالكتابات العلمية.

أما رهان الإقناع فينفلت من سؤال الحقيقة، إذ الأمر لا يتعلق بالنسبة للذات بتأسيس حقيقةٍ بقدر ما يرتبط بـ "حيازة الصواب"، والعمل على جعل الآخر يتبنى هذا الصواب. فالرهان هنا منصبّ، من جهة، على المصداقية -وإذن على حقيقة ذاتية- ومن جهة أخرى، على التأثير، الذي تحاول الذات من خلاله تغيير رأي و/ أو اعتقادات الآخر. من هنا يتبين أن الحجج التي يتم توظيفها لأجل إقناع الآخر تقوم على العقل تماما مثلما تقوم على العاطفة، وتوازن بين الإيتوس والباتوس من جهة وبين اللوغوس من جهة أخرى، بل غالبا ما ترجح كفة الأول والثاني على الثالث، طالما أن الهدف من الخطاب أن نحمل الآخر على التصديق بشيء بالصورة التي يبدو معها في وضعية "المجبر على التصديق". هذا الرهان نعثر عليه في كل الوضعيات التواصلية الدِّعائية كما في أغلب المناقشات العادية. ففيها يتم اللعب باستمرار بالاستراتيجيات الخطابية بغرض إضفاء المصداقية على الذات المتحدثة، وشدّ انتباه المتلقي.

أما مصطلح "الاقتناع"، فمن المؤسف أن الاستعمال الشائع يوظفه مسندا إلى الطرف الآخر في الوضعية التواصلية، أي المخاطَب أو المتلقي المزمع إقناعه، كما في عبارات من نوع: "سأحاول أن أجعلكم تقتنعون"، "ينبغي في النهاية أن يقتنع". والحال أن "الاقتناع" يجب أن يختص بالدلالة على حالة اليقين التي يوجد عليها المتحدث كأن يقول مثلا:" لقد اقتنعت بأن ..." أو " قناعتي تتمثل في ...". وتبعا

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

لذلك، يمكننا القول إن الإقناع موجه نحو الـ"أنت"، في حين أن الاقتناع موجه صوب الـ "الأنا". بيد أن الاستعمال الشائع لا يفيدنا هنا البتة، لأن بإمكاننا أن نتحدث عن "اقتناع الآخر" تماما كما يمكننا أن نقول: "أقنعت نفسي بأن..."، وهو ما يفيد بأن بإمكاننا أن ننسب الاقتناع والإقناع كليهما إلى ذواتنا. على أنني أرى من منطلق ذاتي أن الإقناع يتناسب، كما ذكرنا سابقا، مع رهان التأثير الرامي إلى حمل الآخر على مشاطرتنا "فعلا اعتقاديا" معينا، وأن هذا الأمر يقتضي توظيف سيرورة حجاجية مناسبة، في حين أن الاقتناع يلائم نمطا معرفيا يصف حكما (*jugement*) معينا، لذلك يتم توظيفه كاستراتيجية لحمل الآخر على تبني هذا الحكم، عبر ما يصطلح عليه بـ "قوة الاقتناع".

من هذا المنظور، ولمّا كان الحجاج مجرد نمط من أنماط النشاط اللغوي، يضفي على الخطاب نظاما معينا، فإنه لا يمكن أن يخضع لأي حكم حول قيمة الاستدلالات والحجج التي يوظفها. فليس بإمكاننا الحديث، كما هو جار في الاستعمال الشائع، عن حجة جيدة أو حجة رديئة في ذاتها، ولا أن نقول عن استدلال إنه صائب أو خاطئ في ذاته، ولا عن تحليل إنه مثالي أو خاطئ في ذاته؛ لأن الاستدلالات والتحليلات تخضع لسيرورة معرفية تضم بعض العمليات المنطقية التي تحتاج، لكي يصادَق عليها أو يُحكم على كونها جيدة أو قبيحة، إلى أن تندرج ضمن إطار يحكمه رهان تواصلي. فإذا كان الرهان هو التفسير، فإن الحكم على "وضوح" العرض التفسيري يرتهن بالكيفية التي تنتظم بها العمليات السببية التي تقاس بدورها بدرجة فهم المتلقي (كما في التعليم). أما إذا كان الرهان هو البرهنة، فإن دقة الاستدلالات هي الكفيلة بالحكم على "صحة" العرض البرهاني، تلكم "الصحة" التي تقاس قيمتها ودرجتها بناء على قدرتها على الصمود أمام برهنة مضادة[1]. وإذا ارتبط الرهان بالإقناع، فإنه يتم الاستناد إلى قوة الحجج (عقلية كانت أم عاطفية) في الحكم على "فعالية" الفعل الإقناعي والتي تقاس بدورها بناء على التأثير الذي تحدثه الحجج في المتلقي[2]. إن الحجاج بالنسبة لي هو مفهوم عام، والرهانات التواصلية هي

[1]. عملية الحجاج المضاد لا توجد ضمن العرض التفسيري إلا إذا أردنا اصطناعه.

[2]. وهنا لا يمكن لأي حجاج مضاد إلا أن يكون سجاليا طالما أن الأمر يتعلق بمعارضة "صواب معين" بصواب آخر. "لقد تطور براديغم التواصل الإقناعي بشكل خاص داخل الولايات المتحدة الأمريكية، والأبحاث هناك تسعى

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

التي تحدد ما إذا كان حجاجا تفسيريا، أو برهانيا، أو إقناعيا[1]. ورهان الإقناع هذا هو الذي سوف أقوم بمعاينته في مجال الخطاب السياسي، بما أنني اعتبرت أن صحة حجة ما تتعلق بالرهان الذي يؤطرها، وهو الرهان الذي يرتبط بدوره بالوضعية التواصلية التي تُنفذه.

عن الإقناع في الخطاب السياسي:

لنُذكر بأن المجال السياسي هو الحقل الذي تمارَس داخله مختلف علاقات القوة الرمزية الساعية إلى الظفر بالسلطة وتدبير شؤونها. على أن هذه السلطة لا يمكن ممارستها إلا إذا تأسست على شرعية مكتسبة وممنوحة، وإن كان هذا بدوره لا يكفي لأن الذات السياسية الباحثة عن الشرعية تحتاج كذلك إلى أن تظهر بمظهر المصداقية وأن تتمكن من إقناع أكبر عدد من الأفراد بضرورة تقاسم بعض القيم المشتركة. وهو ما يجعل الهيئة السياسية محكومة بمنظور مزدوج قوامه تكوين فكر سياسي مطالَب بأن يمثل نظاما قيميا مثاليا، من جهة، وتدبير الآراء والتحكم فيها بغرض تحقيق الإجماع، من جهة ثانية. وإلى جانب ذلك، نجد أن عملية ضبط الآراء هذه تمارس في اتجاهين اثنين: مع النخبة ومع الجمهور؛ فمع النخبة يتعلق الأمر بتوحيدها خلف مشروع حكامة مشترك يقتضي إقامة تحالفات مع مختلف الأحزاب والقطاعات التي تنتمي إليها هذه النخب، بالاستناد إلى خطاب الوعد (أو التهديد). ومع الجماهير من أجل الحصول على "السيادة الشرعية" بالصورة التي تحدث عنها ماكس فيبر (*Max weber*)، بالاستناد

لإيجاد حل لصعوبة كبيرة واجهت البحوث التي انصبت حول الحجاج المستلهم من التقليد البلاغي في مجال السيمياء وتحليل الخطاب. هذه الصعوبة تكمن، خصوصا بالنسبة للخطابات التي تنتج عن وضعية التلفظ الأحادي، في التمفصل المعقد بين الآثار المستهدفة والآثار الناتجة أو بين المتلقي المثالي الذي يشيده الخطاب والمتلقي الفعلي. ومع ذلك يبقى أن هذا التمفصل هو الذي يتحكم في التحقق المنتظر لأهداف التأثير". كلود شابرول (*Claude CHABROL*)، ضمن مقال "إقناع" «*Persuasion*» الوارد ضمن كتاب:
Dictionnaire d'analyse du discours, op.cit.

[1]. هذا التمييز يجعلني اختلف عن بيرلمان (Perelman) (1970)، الذي بتحديده موضوع الحجاج في "دراسة التقنيات الخطابية التي تتيح زيادة إذعان العقول للأطروحات التي نعرضها عليهم"، لا يفصل بين ما ينتمي إلى التقنيات الخِطابية العامة وما يدخل ضمن سيرورة التأثير.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

إلى الخطابات التي تؤجج عاطفة مشتركة تجاه إنسان أو مشروع. إن الهيأة السياسية، كما أسلفنا، تجد نفسها موزعة بين السياسة (*la politique*) والسياسي (*le politique*)، بين رؤية مثالية تنتج أنساقا من القيم، ورؤية تداولية تستند إلى خبرة العلاقة مع الآخر لتتمكن من التأثير فيه. إننا أمام أقصى درجات تَذْويت (*Subjectification*) السياسي، وهو تذويت تتشابك فيه، كما بيَّن ذلك العديد من مفكري السياسة من طوكفيل (*Tocqueville*) إلى فوكو (*Foucault*) ودولوز (*Deleuze*)، العاطفة بالعقلانية، والتواريخ الفردية بالتواريخ الجماعية، والمجال العمومي بالمجال الخاص، والعقيدة بالسياسة، والجنس بالسلطة. هذا إلى جانب أن ما يشكل أساس رأي سياسي، من وجهة نظر الفرد – المواطن، هو بالدرجة الأولى نوع من الغريزة النابعة من أعماق التاريخ الشخصي لكل واحد. وبعد ذلك فقط ينبثق نوع من العقلنة يرمي إلى تبرير تلك الغريزة وإضفاء الشرعية الاجتماعية عليها بحسب ما تقتضيه أخلاق العيش داخل المجتمع والتي تتأرجح بين التداولية والمثالية.

هكذا يجد رجل السياسة نفسه في وضعية هدفها الأساس هو الحث على الفعل والذي يولد لديه الرغبة في الحصول على تأييد أكبر قدر ممكن من الجمهور. وبموجب ذلك، يجد نفسه مطالبا بأن يوظف الاستراتيجيات التخاطبية المتعلقة، في نفس الآن، بالكيفية التي يتمثل بها الرأي العام، وكذا بالكيفية التي يعتقد أن الرأي العام وبقية الفاعلين السياسيين -حلفاء كانوا أو خصوما- يتمثلونه بها، ثم بنمط إدراكه للأفكار (أو الأشخاص) التي يرى من الضروري أن يدافع عنها أو يتصدى لها.

لأجل هذه الغاية، سيتوسل بطرق إخراج الخطاب، والتي يتم توجيهها إما صوب أفكار بعينها من شأنها إثارة اهتمام أو عاطفة المتلقي نحوها، وإما في اتجاه بناء سَمته الخاص بغرض جعل المتلقي يقبل على أفكاره ويتبناها بمجرد التعرف على صورته، وإما صوب المتلقي ذاته من خلال العمل على تأجيج مشاعره واستفارها. والأكيد أن كل هذا يمتزج داخل تيار الخطاب السياسي، فيتعذر علينا، أحيانا، أن نفصل بين المكونات المختلفة لآلية الإقناع هاته. فإذا ما استعدنا عبارة "الانكسار الاجتماعي" التي تلفظ بها ج. شيراك (*J.Chirac*) عام 1995، فسيتضح لنا أنها تستدعي بعض القيم الأخلاقية مثل المساواة

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

والتضامن، على أمل أن تؤثر في الفئة الأكثر تهميشا من فئات الشعب (مفعول الباتوس)، وفي نفس الوقت بناء صورة زعيم واعٍ بمآسي الناس ويريد وضع حد لها، في خطوة تدل على الكرم والسخاء (مفعول الإيتوس). -وهو ما يضفي، في نفس الوقت، نوعا من المصداقية على كاتب هذا الشعار – والكل يمتزج داخل وهمٍ عالمٍ أكثر مساواة.

بعض خصائص الخطاب السياسي:

لننظر، إذن، في بعض الخصائص الحجاجية للخطاب السياسي، والتي منها ما هو عام جدا مثل "التبسيط" الذي يَشرط بقية الخصائص؛ ومنها التي ترتبط بأنماط الاستدلال، والتي لها صلة بانتقاء القيم، ثم أخيرا تلك التي لها صلة باختيار الحجج.

شرط البساطة:

إن مواجهة الجمهور، أو بمعنى آخر مواجهة مجموعة أفراد متباينين ومتفاوتين من حيث مستوى تثقيفهم، ومن حيث قدرتهم على التزود بالمعلومة، ومن حيث قدرتهم على التفكير، ثم من حيث خبرتهم بالحياة الاجتماعية، يقتضي التركيز على القيم التي يمكن تقاسمها وبالأخص فهمها من لدن الغالبية العظمى، وإلا انقطعت صلتنا بهذا الجمهور. لهذا فرجل السياسة مطالب، إذن، بالبحث عن القاسم المشترك الأكبر بين أفكار الجماعة التي يخاطبها، مع بحثه عن الطريقة المثلى لتقديم هذه الأفكار.

فالتبسيط ليس أمرا يسيرا، كما أنه ينطوي على مخاطرة كبيرة. فهو ليس سهلا أو يسيرا لأن الأفكار تنتظم في شكل أنساق من المعارف والاعتقادات[1] التي تتشابك فيما بينها بصورة تجعل عرضها - أي الأفكار - معقدا. فالعالم معقد، ومجال التفكير معقد، وسيرورة تشكل الآراء معقدة؛ والتبسيط، يعني محاولة اختزال هذا التعقيد إلى أبسط تعبير له، وهنا مكمن الخطر، لأن التبسيط قد يؤدي إلى حقيقة

[1]. للوقوف على الفرق بين أنساق المعرفة وأنساق الاعتقاد، ينظر:
Charaudeau, (1997) et Le discours politique, op.cit.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

مغلوطة، إلى حقيقة غير مثبتة، بل وإلى حقيقة مناقضة؛ صرّح جون ماري لوبان (*Jean-Marie le Pen*) قائلا: "إن معاهدة ماستريخت تمنح حق التصويت للأجانب ومن ثم لكل الذين يتمكنون بطريقة شرعية أو غير شرعية من عبور حدودنا."[1] هكذا يتضح أن شرط التبسيط يؤدي دائما إلى بتر قليل من الحقيقة.

أنماط الاستدلال:

هذه خاصية ثانية من الخصائص الحجاجية الموظفة في الخطاب السياسي، وهي تتعلق بأنماط الاستدلال الأكثر استخداما.

إذا أخذنا بعين الاعتبار رهان الإقناع، فإن الأمر لا يتعلق بالنسبة لرجل السياسة ببلورة استدلال منطقي يهدف إلى التفسير أو البرهنة بقدر ما يتعلق بتبيان قوة الدليل؛ بمعنى أنه لا يستهدف الحقيقة بقدر ما يستهدف المصداقية؛ ولا يهتم بقول "ما هو حقيقي"، ولكن بما "يعتقد أنه حقيقي"، وعلى المتلقي أن يعتقد أنه فعلا حقيقي. إن رجل السياسة يجد نفسه ملزما بالخضوع لشرط التبسيط الحجاجي الذي يقوده إلى اقتراح استدلال سببي بسيط بالاستناد على معتقدات قوية يُفترض أن يشاركه فيها أكبر عدد ممكن من الأفراد، والعمل على تعزيزها وتقويتها من خلال عرضها بكيفية يتعذر تفاديها[2].

إلى جانب ذلك، نعثر داخل الخطاب السياسي بشكل خاص على نوعين من الاستدلال السببي؛ يسمى الأول استدلالا إيثيقيا، لأنه يتخذ من الغاية مبدأ للفعل: "لأنكم ترغبون في فرنسا قوية، ستصوتون لصالح مشروع ليبرالي"[3]؛ لم يُصرح هنا بضرورة القيام بفعل (التصويت) بغاية الحصول على شيء ما (فرنسا قوية)، بل الذي وُضع أولا هو المبدأ ("فرنسا قوية") والذي يقتضي ضرورة (ضرورة إيثيقية)

[1]. «Discours du serment de Reims», Présent, 11, 12 et 14 septembre 1992.

[2]. في خطاطة تولمين Toulmin (1994)، هذه المعتقدات المفترض تقاسمها تتناسب مع "قانون العبور" الذي يتخذ كـ "ضامن" أو كـ "احتياط".

[3]. الصياغة هي دائما من نوع "لأن كذا... سوف...".

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

إتيان فعل محدد (التصويت). هذا النمط من الاستدلال، الذي لازال يُنعت بالمبدئي، يستهدف حمل الأفراد على الإذعان لفكرة بسيطة ستشكل مبدأ انخراطهم في المشروع السياسي المقترح عليهم. النوع الآخر من الاستدلال، المسمى تداوليا، يضع مقدمة تستلزم إما نتيجة حتمية نسبيا وإما تتوخى تحقيق هدف: "إذا قمنا بتخفيض الضرائب، فإننا سنرفع من القدرة الشرائية"، "صوتوا يوم الأحد من أجل إنقاذ الجمهورية"[1]. فهذا الضرب من الاستدلال يهدف إلى حمل الأفراد على الاعتقاد بأنه لا توجد نتائج أخرى ممكنة غير تلك المصرح بها، أو ليس هناك هدف آخر يمكن رصده غير ذلك الذي تم التلفظ به. يحدث إذن نوع من الانزياح المنطقي من "سببية ممكنة" نحو "سببية حتمية"[2]. إن الخطاب السياسي القائم على الاستدلال الإيثيقي يرمي إلى وضع الفرد أمام اختيار أخلاقي ("على ضوئه يتحدد الفعل المطلوب")، في حين يرمي الاستدلال التداولي إلى وضعه أمام مسؤولية معينة ("أية وسائل ينبغي التوسل بها لتحقيق أهدافه).

اختيار القيم:

هذه خاصية ثالثة، ترتبط باختيار القيم التي يجد رجل السياسة نفسه مطالبا بالعمل بها من أجل تقاسمها مع الجمهور الذي يتوجه إليه. قد نعتقد للوهلة الأولى أن هذا الاختيار لا يطرح أمامه مشاكل كبيرة، إذ يكفي أن يعمد إلى اختيار القيم التي تناسب قناعاته الشخصية وقناعات أشياعه. بيد أن الأشياء ليست بهذه البساطة، لأن هذه الاختيارات سرعان ما تصطدم بعدد من العقبات.

أولها، عقبة تعددية القيم؛ فنحن نعلم أن رجل السياسة الذي يرغب في الوصول إلى السلطة أو المحافظة عليها، في حاجة إلى إجماع بالأغلبية من قِبل الرأي العام. بيد أنه من النادر أن يكون هذا

[1]. الصياغة هنا هي من نوع "إذا... إذن..." أو "هذا من أجل...، بالنظر إلى هذا".

[2]. عن هذا الانزياح، ينظر: Charaudeau (1992 :536)

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

الإجماع متجانسا، ما عدا في حالات خاصة جدا[1]. إن رأي الأغلبية المشَكل للإجماع هو في الغالب الأعم نتيجة توافق بين آراء متباينة حول القيم السائدة في تلك الظرفية بالذات. ولقد شهدنا في أكثر من مرة رجالات سياسة انتُخبوا بفضل أصوات الأحزاب المعارضة، وهو ما يدل على أنه ليست كل القيم المعبر عنها في هذا الإجماع تتقاطع بالضرورة مع تلك التي يتبناها رجل السياسة، وبالتالي فهذا الأخير، مطالب، خارج قناعاته، باستدعاء قيم أخرى، تبدو له أكثر ملاءمة للغالبية العظمى من الرأي العام، لكن دون أن يتخلى عن قناعاته الخاصة، وإلا ترتب عن ذلك فقدانه لأنصاره. وقد حدث هذا الأمر بالفعل في فرنسا خلال الانتخابات الرئاسية لسنة *2002*، حيث أن حملة ل.جوسبان (*L.Jospin*) ركزت حينها على قيم الوسط أكثر من تركيزها على قيم اليسار، ففقدت جزءا كبيرا من أصوات ناخبيها. هذا الأمر يحتم على رجل السياسة تحقيق شرط الملاءمة مع قيم الأغلبية -أو على الأقل ما يعتقد أنها كذلك- ، دون أن يتناقض مع نفسه.

ثمة عقبة أخرى تتجلى في كون القيم يمكنها أن تتغير تبعا لمجريات تاريخ دولة ما فتتغير معها الآراء المرتبطة بها. وهذه يمكن أن يعاد تعريفها لتتوزع بالتالي بشكل مختلف بين أحزاب الآراء. والحال ذاته ينطبق على القيم التي تنتمي إلى تمثلات التراث والحداثة[2]؛ فقد يثمن شعب ما العودة إلى التاريخ وإلى الماضي عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن قيم السيادة الوطنية في مواجهة تهديدات فقدان الهوية التي يجسدها الإعلاء من شأن قيم فيدرالية أو عولماتية تعرض نفسها باسم الحداثة، وهذا ينطبق على مواقف اليسار كما على مواقف اليمين. إلا أن هذا الاستنجاد بالتقليد وبالماضي يمكن أن يُحكم عليه بالرجعية حينما

[1]. من قبيل أزمة اجتماعية خطيرة تستوجب التفاف جميع أفراد الشعب حول زعيم كبير أو مبدأ حرية يمحي بشكل مؤقت كل رأي آخر.

[2]. هذا السؤال تمت معالجته في مؤلفنا:

Le discours politique. Les masques du pouvoir, op.cit, dans chap. VII.2, «Les imaginaires de vérité du politique».

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

يُستخدم لتبرير بعض الممارسات من قبيل الإقصاء أو التصفية العرقية، أو ينظر إليه، في أفضل الحالات، كموقف محافظ حينما يستخدم لحماية الممارسات الإقطاعية.

لقد مضى زمن كانت فيه السيادة الوطنية تجسد قيمة مشتركة بين الغالبية العظمى من شعوب أوربا، أما اليوم فلم تعد ذات جدوى، إذ تم استبدالها بقيم ذات طابع جهوي وإقليمي (حركات الاستقلال والتحرر داخل الدول- الأمم). وإلى عهد قريب، كان هناك تعارض جذري بين قيم التقدم الاجتماعي وقيم التقدم الاقتصادي. الأولى، وهي التي كانت تتبناها، بالخصوص، أحزاب اليسار، تمجد المساواة الاجتماعية؛ أما الثانية، وهي التي ترتبط بالخصوص بأحزاب اليمين، فتمجد الربح، مصدر ثراء المجتمعات. بيد أن الوضع قد اختلف اليوم، حيث وافق المنافحون عن القيم الأولى على ضرورة إدماج قيم تنتمي إلى اقتصاد السوق، شرط إنتاج الموارد، التي بدونها لن يكون هناك ما يمكن تقاسمه. كما أن المنافحين عن القيم الثانية صاروا على وعي بضرورة إدماج قيم تنبع من مبدأ الإنصاف، الذي هو شرط ضروري لإقرار السلم الاجتماعي. أما فيما يتعلق بمبدأ الحرية، فسيتم تدريجيا الدفاع عنه أو محاربته من طرف هؤلاء وأولائك، بحسب ما إذا كان يطبق في مجال امتلاك الحق في الجسد وحرية التصرف في الحياة (أقراص، إجهاض، موت رحيم)[1]، أو في مجال الاقتصاد (التبادل الحر)، أو في مجال الشغل (حرية التسريح) أو في مجال الزراعة (حرية الإبداع ضد الهيمنة التجارية)، الخ.

إن صعوبة وصف القيم تزداد تدريجيا بربطها بكيفية ثابتة بآراء معينة، أو بجماعات أو بأحزاب يمينية أو يسارية، حتى مع بقاء بعض الاعتراضات قائمة؛ فلا يتأتى لنا ملاحظة وتحليل ووصف هذه القيم إلا بطريقة تدريجية[2]. ويمكننا القول من باب التذكير فقط أن هذه الأخيرة يمكن وصفها تبعا لتباين المجالات: مجال المبادئ الكونية المؤسِّسة للسعادة الاجتماعية مع قيم الحرية، والمساواة، والتضامن؛ ومجال

[1]. لنذكر بما قاله ج.م.لوبان (Le Pen) بهذا الخصوص :" إن التأكيد الذي مقتضاه أن جسدك هو ملك لك مثير للسخرية. إنه، بالأحرى، ينتمي إلى الحياة، مثلما ينتمي، في جزء منه، إلى الأمة".

[2]. "تدريجيا" تعني هنا بحسب متغيرات فترة تاريخية ما، والسياق الثقافي والوضعيات السياسية.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

المبادئ الهوياتية مع قيم السيادة (وطنية أو جموية)، والانتماء الديني، أو العرقي، أو الإيديولوجي؛ ومجال المبادئ المتحكمة في الحياة الاقتصادية مع قيم الربح، والحق في الشغل والإنصاف؛ ومجال التقدم التكنولوجي مأخوذا في بعده الذي يخدم مصلحة الأفراد وضد تأثيراته الضارة؛ ومجال مبادئ الحياة الاجتماعية مع قيم العدالة المنصفة، وتأمين الممتلكات والأشخاص؛ وأخيرا مجال مبادئ الحياة السياسية مع قيم الشرف خاصتُها – تلك التي يحق لنا أن ننتظرها من رجال السياسة – وقيم الصدق التي تتطلب نوعا من المطابقة بين الأقوال والأفعال، وقيم المسؤولية في وظيفة الحاكم والوفاء بالتعهدات.

الحجج:

وهي خاصية رابعة تتعلق بما من شأنه أن يمنح بعض القوة لفعل الإقناع: أي حجج الإثبات، التي يمكننا أن نتحدث بخصوصها عن أشكال متنوعة، لكننا سنكتفي بذكر الأكثر ترددا من بينها، مادام بعضها الآخر لا يستعمل بأية حال في مجال الخطاب السياسي[1].

وأولى هذه الحجج، حجة تضمين البداهة، وهي تقوم على تذكير المتلقي بقوة القيم المشتركة، وبما يمكن أو يجب قبوله أو رفضه، كما في الحالة التي يقول فيها رجل سياسة: "لا يمكن ألا نرغب في إنقاذ الجمهورية" (الجمهورية لها قيمة كونية)، "إن التدخل الإنساني تبرره حالات الابتزاز التي تجسدها التصفية العرقية التي تقوم بها الحكومة الصربية" (لا يمكننا أن ندع ضحايا فعل إجرامي يتزايد)؛ وذلك وفقا للإكراهات التي أتينا على ذكرها، والتي تتسيد اختيارنا للقيم.

[1]. سنعتمد على المؤلف الذي يصنف فيه ك.بلونتان (C.PLANTIN) (1996) أنواع الحجج: فال"حالة بحالة" لا يمكن استعمالها ضمن الخطاب السياسي لأنها تتعارض مع قاعدة البساطة التي أسلفنا الحديث عنها؛ كما لا يمكننا استعمال "وجهة النظر النسبية"، لأن هذه تفترض الإقرار باحتمال صدق وجهة نظر أخرى غير تلك التي ندافع عليها، وهي مسألة شبه ممنوعة داخل الخطاب السياسي؛ ولا يمكن توظيف "الموقف المضاد" الذي يفترض أنه يلزمنا تقديم تنازل في مقابل الحصول على تنازل آخر (هذا متداول باستمرار في المفاوضات، لكن لا يتم التصريح به مطلقا) (ص50)، إلخ.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

وثاني الحجج، هي تلك التي تحيل على إيتوس الخطيب[1] والذي قلنا عنه أنه يُستخدم كحامل لتعريف المتلقي به. ونحن نتحدث عن إيتوس التوضيح والتحكم بالنسبة للخطيب، كحين، يلجأ، مثلا إلى تبرير يقوم على ثقل الظروف ومعاكستها[2]: "لا نستطيع أن نخفي بأن العالم الحديث قد انخرط في سيرورة عولمة اقتصادية. السؤال يبقى حول إمكانية التحكم فيها"؛ وإيتوس التعهد والذي يتبدى في التعبير عن الرغبة في الفعل "لقد استمعت إليكم، وأتعهد بتغيير معطيات السياسة"، "سوف أسخر كل طاقتي وإرادتي في سبيل تحقيق هذه السياسة الجديدة"، "أتعهد، أمام الشعب الفرنسي، أنه عندما يصل (FN) إلى السلطة، كل هؤلاء البلطجية واللصوص، لن يُجبروا على أداء الثمن فقط، بل على إعادة ما نهبوه[3]". وإيتوس متعلق بالسلطة يرتكز على التذكير بمشروعيتها ومصداقيتها: "إنني وباعتباري منتخبا، ممثلا للشعب، أطالب بوضع رئيس الجمهورية موضع اتهام"، "أنتم تعرفونني، وكل من يعرفني يعلم أنني ما سعيت يوما نحو الاغتناء الشخصي"، أو إيتوس يرتبط بسلطة شخص آخر، "والواقع أنني، في هذه القضية بالذات، أمتلك الدعم الكامل لرئيس الجمهورية".

وهناك، أخيرا، حجج موجهة لإضفاء مسحة درامية على مشهد الحياة السياسية، من خلال لجوئها إلى عالم العواطف. ذلكم العالم الذي ليس غريبا بالمرة عن مجال العقل، ما دام بدوره يخضع للتعديل من خلال نوع من العقلنة البعدية التي تحوله إلى عالم مبني اجتماعيا: "في كل تجربة عاطفية، [يوجد]

[1]. ينظر، ضمن هذا الكتاب، مقال مارتل وتوربيد (Martel et Turbide) حول الأساليب البلاغية مثل الدحض الاستباقي (ص201–202)، والاستدراك (ص201) والتناقض (ص200).

[2]. بالفعل، فالخطاب السياسي لما لم يكن في مقدوره أن يكون حتميا، فقد استدعت الضرورة، عند مجابهته لإكراهات سلبية ما، أن يعرب عن وسيلة لصدها أو عن نيته في مقاومتها.

[3]. هذا المثال يعود لـ ج.م. لوبان (Le Pen) وباقي الأمثلة الموالية استلهمناها من كتاب م. سوشارد ومساعديه (M. Souchard et al) الموسوم بـ:

«Le Pen. Les mots. Analyse d'un discours d'extrême-droite, Le Monde éditions, Paris, 1997.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

عقل[1]". وبذلك فثمة "مشاعر عاطفية" تتحرك داخل هذا العالم، وبحكم اتصالها بالبعد العاطفي للأفراد، فإنها تأخذ صورة درامية، تبعا لسيناريو معد للتأثير في الجمهور إن سلبا أو إيجابا. فالخطاب السياسي -وهو ليس الوحيد- يلجأ إلى هذا الإخراج الذي يتّبع فيه السيناريو الكلاسيكي للحكايات الشعبية وقصص المغامرات: وضعية أولية تصف شرا معينا، ثم تأتي مرحلة تحديد علة هذا الشر، وبعدها مرحلة إصلاح هذا الشر عبر تدخل بطل طبيعي أو خيالي. إن الخطاب السياسي الذي يبحث عن انخراط الجمهور إما في مشروع أو في فعل، أو الذي يسعى إلى ثنيه عن الانضمام إلى مشروع منافس، يشدد بشكل خاص على الفوضى الاجتماعية التي يكون ضحيتها هو المواطن، كما على مصدر الشر الذي يجسده في خصم معين، وعلى الحل المخلِّص الذي ليس سوى رجل السياسة صاحب الخطاب. فالفوضى الاجتماعية يتم تقديمها هنا بوصفها حالة واقعية أو حالة محتملة: في الحالة الأولى، يتعلق الأمر بإقناع الجمهور بأن وجود شرٍّ ما والحالة التي عليها الضحية هما أمران قائمان ولا يحتاجان إلى إعمال نظر؛ في الحالة الثانية، بالمقابل، يتعلق الأمر بخلق حالة من الترقب تستوجب التفكير في الوجود المحتمل لشر ما، ينتج عنها نوع من الخوف المولد للقلق. كما أن مصدر الشر قد يتم تقديمه بصورة محددة واضحة أو بصورة ضبابية: تتمثل الحالة الأولى في تجسيد الشر مثلا في شخص معروف بالاسم ("صدام حسين"، هذا الشيطان!") أو في مجموعة معروفة بانتمائها إلى حركة حزبية (الـ RPR، ذلك الحزب المافياوي، الذي يمارس الإقصاء[2]")؛ أما الحالة الثانية، حالة الصورة الضبابية، فترتبط بتقديم مصدر الشر في المجمل بصورة تختزله في زاوية مبتسرة ضيقة ("الهجرة، ذلك الشر الذي ينشر الرعب"). أما الحل المخلِّص فيقوم على اقتراح تدابير من شأنها إصلاح الشر الموجود. وهو ما يستوجب من المدافع عن هذه التدابير أن يظهر بمظهر الإنسان الصادق، المقنع، وأن يحاول تشييد صورة قوية عن نفسه كمنقذ، والهدف من وراء ذلك أن يجد فيه الجمهور ذلك الإنسان الذي سيخلّصه من الشرور المحذقة به فيتعلق به بشكل كلي. وهذا إنما يدل على أن الصورة المكونة عن الذات (الإيتوس) مهمة في الخطاب السياسي.

[1]. Eggs (2000).
[2]. J. M. Le Pen, ibid.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

كذلك نسمع عن استعمال حجج التهديد الضمني، تلك التي تعرض الخطر الذي قد ينجم عن عدم القيام بالاختيار الجيد: "إذا لم ننتهز فرصة تشكيل أوروبا الموحدة، فإن ما سينجم عن ذلك ليس فقط إضعافها أمام قوة الولايات المتحدة، وإنما إضعاف دولتنا أيضا[1]"، أو تعبر عن مأزق: "اليسار أو اللاأمن"، "اليمين أو الإقصاء"،"دوغول (*De Gaulle*) أو الفوضى". ولا شك أن الحجج التي تلجأ إلى الحط من قيمة الخصم، بالتهجم عليه مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، تكون أكثر عدوانية: "أنت لا تمتلك ذرة من أخلاق"، "ثمة من يحرضكم على الامتناع. ألن يكون هناك أي رأي عن أوربا ؟"، أو وضعها موضع تناقض: "منذ فترة قريبة، كنتم ضد أوربا ماستريخت (*Massetricht*)، واليوم أنتم تمجدون حسناتها"؛ "لم ينقضِ وقت طويل حين كنتم ضد تقليص الفترة الانتخابية إلى خمس سنوات واليوم أنتم تدعمون هذا المشروع".

الأساليب:

نستطيع أن نلاحظ أن بعض الأساليب التي وُضعت خصيصا لخدمة الخصائص التي أتينا على ذكرها، والتي وإن لم تكن حكرا على الخطاب السياسي وحده، فهي تتردد فيه أكثر من غيره. سنذكر بصفة خاصة أساليب الإفراد أو الإغراب، والتحديد الماهوي والمماثلة.

يكمن أسلوب الإفراد في تجنب تعديد الأفكار، الذي قد يفضي إلى نوع من الالتباس بالنسبة لعقول لم تألف التأمل الفكري. إن التعبير عن فكرة يمكنه أن يكون[2]، في نفس الوقت، دليلا على الوضوح، ويجعل تركيز المتلقي وانتباهه منصبين على هذه الفكرة الواحدة والوحيدة. وإلا شرد المتلقي وتشتت انتباهه في كل اتجاه، ذلك لأن "كثرة الأفكار تقتل الفكرة". وقد تمكن أحد المعلقين على الحملة

[1]. وتسمى أيضا حجة "وضع الأصبع الصغير في الترس" (بلونتان Plantin، 1996:45). وحجة "وضع الرِّجل في الباب" (بوفوا Beauvois، 1987: الفصل. 4).

[2]. استعملنا هنا صيغة شرطية، لأن مطلب الوضوح نابع في حد ذاته من تصور، هو تصور البساطة.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

الانتخابية لـ ل. جوسبان (*L.Jospin*) من توظيف هذه المقولة المذكورة للرد على البرنامج الانتخابي لليسار بالقول: "إن هذا المشروع الذي تعرضونه يتضمن مقترحات عديدة لكنه لا ينطوي على أفكار"[1].

أما التحديد الماهوي فغالبا ما يرافق الأسلوب الأول. وهو يتمثل في لملمة وتجميع أطراف فكرة ما وتكثيفها داخل مفهوم يمكنه أن يقوم بذاته، بصورة طبيعية، مثل ماهية، في استقلال عن أي شيء آخر عدا نفسه. ولأجل ذلك، فهذه الفكرة تقدم نفسها في صيغة إسمية، كما هو الحال مثلا مع مفردة "هجرة" التي يوظفها ج. م. لوبان (*J. M. Le Pen*)، بحكم أنها تختزن بداخلها فكرة تفيد أن المهاجرين يجتاحون المجال الفرنسي ويمثلون تهديدا [لدولة فرنسا]: "الهجرة، هي خراب دولتنا"، "الهجرة هي سبب البطالة". ولفرط استعمال هذه الصيغة الإسمية في سياقات معينة، أصبحت حاملة لشيء يوجد بذاته، بطريقة مطلقة، فارضا نفسه بصورة لا مناص منها. فيغدو الفكر حينئذ في غير ما حاجة لأن يتساءل حول تعقيد هذه الظاهرة.

إن هذا الأسلوب المزدوج، المشكَّل من الإفراد والتحديد الماهوي، يفسح المجال لظهور عبارات متباينة من حيث التأثير والسداد. وكلما كانت العبارة موجزة وفي نفس الوقت مشحونة دلاليا، بشحنة دلالية تضم فكرة أو عدة أفكار يتم تحديدها ماهويا وإضفاء مسحة ضبابية عليها في نفس الوقت، إلا كانت لها قوة جذب أكبر. هذا على الأقل ما تقرّه إحدى الفرضيات السيكوسوسيولوجية التي ترى أننا ننجذب إلى فكرة بصورة أكبر متى كانت هذه الفكرة غير محددة بدقة[2]. والصياغة التي من هذا النوع، والتي أفردت لها بحوث عديدة، تستهدف في الأصل خلق مفعول البداهة.

[1]. Le Monde du 05/06/02.

[2]. كلما كانت فكرة ما دقيقة، إلا وأبقت من يتلقاها خارجها، بينما كلما تم تعريفها بشكل ضبابي، تركت للذي يتلقاها مجالا واسعا لكي يتأملها. هذه فرضية وضعت من لدن ج. بودريار (Baudrillard) ضمن:
De la séduction (1979).

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

وهناك، أخيرا، أسلوب المماثلة، ونعثر عليه بكثرة داخل الخطاب السياسي، حيث من شأن مفعول المقارنة أن يحدث أثرا قويا: ومن أمثلة هذا الأسلوب نذكر المماثلة بوقائع حدثت بالفعل (كما لو تعلق الأمر بفقه القانون): "تذكروا إضرابات سنة 95، التي كانت نتيجة سياسة متسلطة"، "في كل مرة تُتخذ فيها مبادرة سياسية حول قطاع مهني أو اجتماعي معين، من دون استشارة المعنيين بالأمر، تحدث حركات احتجاجية قوية وإضرابات حادة"؛ كذلك هناك المماثلة بأحداث من الماضي، وهي تلعب هنا دور مرجع مطلق: "لا يمكننا أن نقبل فكرة أنه كانت هناك معسكرات اعتقال في البوسنة" (مماثلة بالمعسكرات النازية)، "أمريكا لن تعرف فيتنام جديدة". ويمكن للمماثلة أن تكون أيضا بشخصيات تاريخية كبرى: "دوغول (*De Gaulle*) ينبغي أن يتقلب في قبره" (مانديس فرانس *Mendès France*). كل هذه الأساليب تساهم مجتمعة في منح الخطاب السياسي مظهرا عقلانيا، مع أن تأثيره يظل عاطفيا.

إن الخطاب السياسي يزخر بالأساليب التي من هذا النوع، والتي يطمح من خلالها إلى التأثير في الجمهور؛ ومن جملتها، توظيف المفردات، التي وإن كانت قد تولدت في سياق معين، فقد تم انتزاعها منه وتوظيفها بصورة مطلقة، دون أن نتبين من وظفها، ولا المعنيين بها، ولا لأي غرض وُظفت، مثل:" الهجرة"، و"التضامن"، و"الهشاشة"، و"العِرق"، و"الأمن" (ونقيضه "اللاأمن")، و"العولمة" (ونقيضها "العولمة المضادة")، وكل الكلمات المنتهية باللاحقة *isme*. وإلى جانب هذا الأسلوب، يتم اللجوء أيضا إلى توظيف الصيغ المُركبة المسكوكة، المكونة من اسم وصفة مثل: "القوة الهادئة"، "الجزائر الفرنسية"، "التصفية العرقية"، "المساعدة الإنسانية"، أو يتم توظيف اسمين بينهما تعالق، مثل:"جيل ميتران (*Mitterand*)"، "اختلاف الأعراق"، "سيادة الشعوب". أو استعمال عبارات تنطوي على إضمار، فيتولد عن عدم اكتمال معناها مفعولُ المطلق، مثل: "لن يحدث هذا أبدا"، "النجدة، اليمين يعود"، "فرنسا للفرنسيين". كما يتم استعمال جمل تعريفية تقدم نفسها، على غرار الحِكم والأمثال والأقوال المأثورة، في ثوب حقيقة عامة، بل إن بعضها تبدو كما لو كانت أحكاما أو قرارات: "القائد لا يتخلى عن جنده وسط المعركة"، "الفوضى انتهت"، وبعضها الآخر يركز على السبب: "اللاأمن هو أول جرح في جسد مجتمعنا"، "الهجرة، تعني البطالة"؛ وبعضها يلعب على وتر المفارقة: "كلنا يهود ألمان"؛ وبعضها

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

يراهن على التخيير الزائف: "دوغول أو الفوضى"؛ وبعضها أخيرا، هو تحصيل حاصل، يراهن على الإطناب الواضح في خلق مفعول التعريف الحاسم: "فرنسا هي فرنسا وستظل دائما فرنسا"، "فرنسا لا تكون بحق فرنسا إلا إذا كانت ذاتها"، "في الحرب كما في الحرب"، "العدو، هو العدو"، "اليهودي يهودي". وأخيرا، توظيف عبارات التعجب، التي هي ضمنيا إما وصفية أو سردية، والتي تحمل في طياتها نوعا من الإدانة: "منظمة الدول الأمريكية، نازية"، أو عملا سينجز:"منظمة الدول الأمريكية ستنتصر"، "جيسكار (*Giscard*) إلى المحكمة!"، "الفاشية لن تمر!"، "السلطة ينقصها الخيال!"، "مارسوا الحب، لا الحرب!"، إلا إذا تعلق الأمر بفعل إنجازي حيث الفعل ينجز من داخل القول ذاته: "أنا، رئيس الجمهورية، أعلن حلّ التجمع الوطني".

هذه الأساليب المذكورة تسهم مجتمعة في إحداث مفعول شعار دعائي كالذي نلفيه في الخطاب الإشهاري مع فارقٍ يتمثل في كون شعار من قبيل " لوريال (*L'Oréal*)، الشباب الأبدي"، لا يخدع أحدا في ما يتعلق قوة الحقيقة التي يدافع عنها: فنحن لا نعترف له إلا بقوة الحلم والإثارة[1]. بالمقابل، "الهجرة، مكمن داء عصرنا هذا" هو شعار يمكن أن يتمتع بقوة حقيقة بالنسبة لمن يريد تصديق تحديده الماهوي. ومع ذلك، يصحّ أيضا أن نقول إن الشعار يهدف، في حالة كما في أخرى، إلى أن يُوَلد في أولائك الذين يتلقونه تأثيرا عاطفيا مغلفا بوهم عقلاني، بالنظر إلى أن المعنى الذي يمرره ينطوي في ثناياه على دافع عاطفي يتجاوز كثيرا ما يصدح به علانية.

خاتمة:

ينبغي أن نكون على بيّنة من أن الخطاب السياسي يشتغل بالدرجة الأولى وفق منظور يرمي إلى الحث على التفكير أو الفعل، أكثر مما يهدف إلى البرهنة. فالأمر يتعلق بالبحث عن تغيير (أو تعزيز) الآراء المفعمة بالمشاعر، أكثر منه بتأسيس حقيقة قائمة على العقل ومستقلة عن الآراء. وعلى ذلك يمكن

[1]. هذا الجانب من الحلم والإثارة تم طرقُه في مقال لأدم (Adam)، ضمن هذا الكتاب تحديدا (ص107)، خصصه للخطاب الإشهاري.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

القول أن الخطاب السياسي إنما يتأرجح في اشتغاله بين نظام العقل ونظام العاطفة، مازجا في بوتقة واحدة بين اللوغوس، والإيتوس والباتوس، حتى يتسنى له الإجابة عن السؤال الذي يُفترض أن يطرحه المواطن، وصيغته: "ما الذي يحملني على أن أتبنى هذه القيمة أو تلك؟" بالنسبة لرجل السياسة، المسألة تتعلق باستراتيجة في اختيار القيم وبطريقة عرضها. الكل يمتزج إذن في هذه الذاتية؛ لكن يمكننا مع ذلك أن نميز داخل سيرورة ابناء الخطاب السياسي ملامحَه المخصصة لتقديم صورة معينة عن الذات (الإيتوس)، وتلك المنذورة للتأثير في الجمهور انطلاقا من إخراج درامي معين (الباتوس). ولذلك، ينبغي أن ننكبّ على تحليل الخطابات لنتمكن من رصد هذه الملامح وتحديدها بدقة، إذا كنا نريد أن نتعرف على ما يمثل قوتها في التأثير.

وفي نفس الاتجاه، وحتى نستعيد الفرضية التي وضعناها في البداية، نرى أنه لا يمكننا الحكم على استدلال معين بأنه رديء أو خاطئ في المطلق، لأن الحكم على صحة حجة ما، ينبغي أن يتم داخل إطار وضعية تواصلية وانطلاقا من الرهان الذي يحكمها. إلى جانب أن هذا الحكم يختلف بدوره بحسب ما إذا كان ينصب على التناسق الداخلي للاستدلال، المرتهن بدوره بالاختيار القيمي الذي قامت به الذات التي تحاجج، أو ينصب على التأثير الذي يمكن أن يُحدثه فعل الإقناع في المتلقي. وهو أمر يصعب توقعه، وفي جميع الأحوال لا يمكن قياسه على ضوء الدقة الحجاجية. مَن الأكثر تناسقا، هل هو الأكثر صوابا أم الأقل مغالطة: (1)"التصويت لصالح شيراك يعني إنقاذ الجمهورية " أم (2) " التصويت لصالح شيراك، يعني هدم أسس الجمهورية"؟ في جميع الأحوال، لقد كان الاختيار الأول (1) هو الأكثر تأثيرا بعد إجراء الدور الأول من الانتخابات الرئاسية الفرنسية لشهر أبريل 2002.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

Références:

- AMOSSY.R, (2000), L'argumentation dans le discours. Discours politique, Littérature d'idées, Fiction, Paris, Nathan – université.
- ARISTOTE (1991), Rhétorique, trad.fr, Paris, Tel-Gallimard.
- BAUDRILLARD.J, (1979), De la séduction, Paris, Galilée.
- BEAUVOIS. J. L, et R.V. JOULE (1987), Petit traité de manipulation à l'usage des honnêtes gens, Grenoble, Presses universitaires de Grenoble.
- CHABROL.C, (2002), « Persuasion », dans P. CHARAUDEAU et D. MAINGUENEAU, Dictionnaire d'analyse du discours, Paris, Le Seuil.
- CHARAUDEAU.P, (1992), Grammaire du sens et de l'expression, Paris, Hachette.
- CHARAUDEAU.P, (1997), Le discours d'information médiatique, Paris, Nathan-Ina.
- CHARAUDEAU.P, (1998), « l'argumentation n'est peut-être pas ce que l'on croit », Revue Le Français aujourd'hui, n° 123 (septembre), Association des Enseignants de Français.
- CHARAUDEAU.P, (2004), Tiers, ou es-tu ? A propos du tiers du discours », dans Les non dits du discours. La voix cachée du Tiers, Paris, Vuibert.
- CHARAUDEAU.P, et D. MAIGUENEAU (2002), Dictionnaire d'analyse du discours, Paris, Le Seuil.
- CICERON (1966), De l'orateur, trad.fr, Paris, Les Belles Lettres.
- COPI.I, et K.BURGESS-JACKSON (1986), Informal Logic, New Jersey, Prentice Hall.
- DOMENACH.J-M, (1950), La propagande politique, Paris, Presses universitaires de France.

https://www.linguist.ma
ISSN: 2665-7406 E-ISSN: 2737-8586

- EGGS.E, (2000), « Logos, ethos, pathos, l'actualité de la rhétorique des passions chez Aristote », dans C. PLANTIN et al, (dir.), Les émotions dans les interactions, Lyon, Presses universitaires de Lyon, p.15-31.
- PASCAL.B, (2001), De l'art de persuader, dans Œuvres complètes IX, Paris, Gallimard.
- PARLEMAN.C, et O. OLBRECHTS TYTECA (1970), Traité de l'argumentation. La Nouvelle Rhétorique, Bruxelles, Editions de l'université de Bruxelles.
- PLANTIN.C, (1990), Essais sur l'argumentation, Paris, Kimé.
- PLANTIN.C, (1966), l'argumentation, Paris, Seuil.
- ROUSSEAU. J.J, (1966), L'Emile ou de l'éducation, Paris, Flammarion.
- SOUCHARD.M, et al, (1997), Le Pen, Les mots. Analyse d'un discours d'extrême-droite, Paris, Le Monde éditions.
- TOULMIN. S. E, (1994), les usages de l'argumentation, Paris, Presses universitaires de France.
- VAN EEMEREN.F et R.GROOTENDORST (1996), la nouvelle dialectique, trad. Fr, Paris, Kimé (1re éd : 1992, Argumentation, communication and Fallacies).